المحاضرة الأولى: مدخل إلى تحليل الخطاب.

لم يعد الخطاب الشعري في الوقت الراهن ذلك النوع من الكلام الموزون المقفى، و الذي يتميز عن الخطاب النثرى بخصائص محددة و ثابتة اتفق عليها النقاد و أطلقوا عليها نظرية عمود الشعر، بل أصبح ذلك النداء الغامض في خبايا النفس، لتكسير نمطية تلك الصورة، و تجاوز هذه الرؤية القاصرة إلى فضاء أرحب، أين تزول الحدود بين مختلف الكتابات، فلا يكون هناك شعر، و هناك نثر، بل المهم هو الانصهار في قلب التجربة، تجربة الكتابة، و لعل هذا ما حدده (و.م. ألبيريس) عندما أشار إلى أن الشعر هو الكلام الذي لا يمكن أن يحده منطق، ولا يخضع لقوانين العقل الصارمة، انه التعبير "بواسطة اللغة البشرية عن انفعال أو حقيقة أم تخلق اللغة البشرية للتعبير عنه، و بذلك يصبح الشعر مخاتلة، تمردا، نضالا ضد اللغة"

والمتأمل في واقع خطابنا الشعري المعاصر سيقف لا محالة على تلك الميزة التي تطبعه، فلم يعد هذا الخطاب تأملا ضمن إطار جزيء مقصور على التجربة الحياتية في فرادتها ؛ بل أصبح انصهارا حيا لتجارب إنسانية كلية، ولعل ذلك ما أطلق عليه: التجربة الشاملة وموقف الإنسان من الكون الأمر الذي أدى إلى ضرورة خلق بنى تعبيرية جديدة تكون في مستوى هذا التغيير، هذه البنية التعبيرية لابد أن تتجاوز السائد والمألوف، والالتحام بروح التحول ونشدان ركب الحداثة في مناداتها بالتغيير والإلغاء لكل ما شكل في الماضي نمطا أو نموذجا من السلطة ، فهل حقق هذا الخطاب هذه الجدة؟ !

إن خطابنا الشعري الحديث وإن كان يبحث عن صيغة خلافية جديدة لتفجير الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة؛ والخروج بها من العالم القاصر إلى حيز الوجود اللغوي الدلالي الرمزي الذي تبنى الصورة الفنية مرجعا له، إلا انه ظل يعاني اضطرابا في الوقت الحالي.

إ ن الخطاب الشعري الحداثي ليس نفيا أو إلغاء لما كان، وإنما هو خلق لجديد يبحث له عن تأسيس برؤيا خلافية وبنى تعبيرية جديدة، ولعل هذا ما اشار إليه (أدونيس) بقوله : " فالقصيدة حدث أو مجيء ، والشعر تأسيس باللغة والرؤيا : تأسيس علم واتجاه لا عهد لنا بهما من قبل ، لهذا كان الشعر تخطيا يدفع إلى التخطي ..." فماذا يكون فعل هذا التخطي ، إن لم يكن انقطاعا جماليا ومعرفيا في الوقت الذي هو فيه استمرار وتواصل.

لقد أصبح الخطاب الشعري نسقا خاصا له هيبته التي تربك القارئ، واصبح نمطا خاصا قصد التأثير على الآخرين، وبشكل عام يدل مصطلح الخطاب الشعري على اللغة، في استخدامها الفعلي داخل سياقها الاجتماعي، والأيديولوجي، وفي الواقع فإن الخطاب الشعري كما يتم تداوله حديثا، بوصفه تصورات حول قضية ما؛ هو في جوهره يحمل معنى فكريا، أيديولوجيا، وينطوي على تبني رسالة محددة يهدف المبدع إلى توصيلها للمتلقي بآليات، وأدوات محددة، بغرض إثارته، وتوجيهه نحو زاوية محددة، تمثل بالنسبة للمبدع جوهر فكرته، وهي بمثابة الفكرة الملحة لديه، وعلى الرغم من أن مفهوم الخطاب مرتبط بشكل وثيق بالنصوص من خلال ارتباطه بمعانيها، إلا أن الخطاب من جهة أخرى ليس هو المعنى الحرفي والمباشر للنص، إنما يقوم على المعنى الذي يستقى من المعنى المباشر، والحرفي للنص، فالمستوى التفسيري الحرفي، والمباشر، هو جزء من مفهوم النص ذاته، "والخطاب الشعري نص مثقل بالرموز، متعدد الأبعاد ينهض بفعل الإيحاء، وطاقات اللغة التعبيرية، وقدرتها على إنتاج المدلولات...، وهو فعل ينزع إلى البقاء في ذاكرتنا بما يثيره من انفعالات على خلاف الكلام العادي الذي يذهب إلى التلاشي بمجرد تحقق الإبلاغ.

والسياق في الواقع نوعان: سياق تصدير الخطاب، وسياق لتلقيه، ولكل منهما دوره في التأثير على فهم الخطاب، وإن كلا من طرفي الخطاب(المخاطب والمخاطب) وسياقي الخطاب (الإرسال، والتلقي) ووسيلة الخطاب(النص) تؤلف ما يسمى "عناصر الخطاب"، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن

الخطاب يعني التوجه العام للنص، نحو المخاطب بكل ما يتضمنه من إشارات فكرية، أو اجتماعية، أو فنية أدبية، بحيث يشير إلى المنهج، والرؤية والتصور، والرسالة، كما يتناول الخطاب الشعري قضية التعبير اللغوي عند الشاعر، فالكلمات في الشعر لا تعبر عن معانيها الحسية، ودلالاتها بشكل مباشر، وإنما تعبر عن جو نفسي ينقل المألوف المتكرر، إلى ما هو جديد، وطريف، ويعالج الخطاب الشعري موضوع الأسلوب، وتشكيل العبارة؛ فإن الجمل الاسمية لها دلالاتها(الثبوت)، في حين أن التعبير بالجملة الفعلية له دلالاته – أيضا– بما تكتنزه من إشارات، ورسائل تفيد التجدد، والحدوث، والاستمرارية، كما أن التوظيف الشعري للألفاظ أرحب وأوسع، وأكثر إشراقا، من التوظيف العادي، أو المباشر، أو الاستخدام النثري، وذلك بفضل ما يتمتع به الشعر من تقنيات خاصة، يحكمها الوزن والإيقاع، الشيء الذي يدفع بالشاعر إلى استخدام التكثيف، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، حيث يلجأ الشاعر في كل ذلك إلى "كسر نمطية العبارة" فيعمد إلى أن يخالف في ترتيب الجملة، من أجل تجاوز التقريرية، والمباشرة، التي يتسم بها النثر، إلى التوتر، والإيحائية، فالشاعر الجيد هو الذي يستطيع القفز على المعاني المعجمية للألفاظ، ودلالاتها المباشرة، إلى معان أكثر عمقا، وأكثر شاعرية، وأكثر إيحائية، وهنا يجب علينا معالجة هذه القضية بحكمة بالغة، وبتوازن دقيق، فلا ننزلق إلى مستنقع الغموض، والاستغلاق، والإبهام، ولا إلى السطحية، والسذاجة والتقريرية.

إن الخطاب الشعري عملية تفاعلية متبادلة بين المبدع، والمتلقي، وهو حالة نفسية، ومعنوية مركبة، تحتاج إلى قارئ على قدر كبير من الوعي، والإبداع، والذكاء...، لا يقل بحال من الأحوال عن حال المبدع الأول، ولهذا فإن عملية الولوج إلى أعماق النص، واكتشاف أسراره تحتاج إلى أدوات، ومفاتيح خاصة، بعيدا عن الغلو، والتطرف، واستنطاق النص بما لم ينطقه، أو تحميله أكثر مما يحتمل، فالخطاب باعتباره مقروء القارئ، وكيفما كانت درجة وعي القارئ، بما يفعل، فإنه لا بد أن يمارس في ذلك النص ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه، فيسهم القارئ هكذا في إنتاج

وجهة نظر أخرى، بل إحدى وجهات النظر، التي يحملها الخطاب صراحة، أو ضمنا والقارئ عندما يسهم في إنتاج وجهة نظر معينة من الخطاب، فإنه يستعمل هو الآخر أدوات من عنده هي في جملتها وجهة نظر، ومن هنا يأتي اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها، ولعل اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها راجع لما يتمتع به النص من تكثيف، وغموض، فالخطاب الشعري نص مثقل بالرموز، متعدد الأبعاد، ينهض بفعل الإيحاء، وطاقات اللغة التعبيرية، وقدرتها على إنتاج المدلولات، لذلك ظل "بول فاليرى" يردد أن الشعر لون من الرقص بالكلمات ونظام من الأفعال، لها هدفها في حد ذاته " وفعل ينزع إلى البقاء في ذاكرتنا بما يثيره من انفعالات، على خلاف الكلام العادي الذي يذهب إلى التلاشي بمجرد تحقق الإبلاغ، وبما أن النص الشعري فعل كلامي بالأساس، فإنه يتجه إلى توظيف العلاقة اللغوية في مستوياتها الصوتية، والمعجمية، والتركيبية والرمزية المختلفة، وبهذا يغدو النص نسيج كلام وحوار... من المفروض أن يفهم دون لبس، ولكنه– أيضا– يتمتع بوظيفة في ذاته، بما ينتجه من تراكيب، وصور، وأخيلة ،(فالشعر -إذن- خطاب متميز يضمر أكثر مما يصرح، يوحي.. ويأبى أن يفصح عن ظاهره، أو حقيقته للوهلة الأولى، بل تراه يمعن في التخفي، والتحكم، والخداع وراء شعرية الكلمات وظلالها وإيحاءاتها.

أما التأويل فهو الموصوف بالإغراب، لا الظاهر، أو هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، وهو أحد أهم المداخل النقدية لإضاءة النص الشعري الحديث، الذي صار فضاء مثقلا بالرموز، والأساطير، والمفارقات، والتكثيف اللغوي، من أجل الوصول إلى المعنى العميق، الذي ينطوي عليه الخطاب الشعري، والكشف عن الدلالات الأصيلة المتوارية وراء المكتوب المراد معالجته، مما يساهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يتحملها الخطاب